# البـــاب الثالـث

## هل هناك خصوصية عرقية للثقافة ؟

- الفرق بين التصنيف العرقى والتمييز العرقى
- العلاقة بين العرق والثقافة

## • الفرق بين التصنيف العرقى والتمييز العرقى

رغم وجود صفات مشتركة تجمع كل البشر المعاصرين ككائنات حية فى نوع واحد قابل للتزاوج بين أفراده، وإعطاء نسل قابل للتكاثر والاستمرار، فإن التنوع فى الشكل والوظيفة والسلوك داخل هذا النوع حقيقة واقعة، فلا يوجد اثنان من البشر متطابقان تشريحيًا وفسيولوچيًا اللهم إلا التوائم المتماثلة من بويضة مخصبة واحدة.

وقد سبق الإشارة فى الفصل الأول إلى أن أفراد هذا النوع «الإنسان العاقل» يتجمعون فى مجموعات تشترك كل مجموعة فى بعض الصفات الفيزيقية، والتى تميزها عن الأخرى، وقد تسمى تلك المجموعات بالعناصر البشرية أو السلالات أو الأعراق.

تنوعت الأعراق نتيجة لانتشار الإنسان منتصب القامة على سطح الأرض، وقد واجه ضغوطًا بيئية متنوعة تبعًا لأماكن وصوله، والمقصود بالضغوط البيئية هى جغرافيا المكان من سهل وجبل، ومناخه من برد وحر، وطبيعة مياهه وهوائه ومغناطيسيته وإشعاعاته ونباتاته وحيواناته، والتركيب الكيميائى لهذه المكونات، وغير ذلك. كل هذه الضغوط قد أثرت فى التركيب الفيزيقى لجسم الإنسان، حتى يتواءم مع خصوصية البيئة التى يعيش فيها وجعلته أعراقًا، وشعوبًا، وقبائل.

ومنذ قديم الزمان عندما تحرك الإنسان من منطقة جغرافية إلى أخرى، لاحظ أن أقرانه من البشر مختلفون بدنيًا عما ألفه، من ناحية لون الجلد ولون الشعر، فهناك الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر، وما بينهما، ومن ناحية لون العين فهناك ذوو العيون السوداء، والزرقاء، والخضراء، وأيضًا من ناحية حجم الجسم فهناك الأطول والأضخم وهناك الأقصر والأصغر، وأيضًا من ناحية الشكل وتناسب الأجزاء فهناك طويلو الأطراف وقصيرو الجذع، وقصيرو الأطراف طويلو الجذع، وهناك ذوو الوجوه العريضة المفلطحة وذوو الوجوه الضيقة الطويلة... وهكذا (انظر الباب الأول).

وقد سجل قدماء المصريين هذه الاختلافات البدنية بين البشر على الحجر منذ بداية التاريخ، وكتب عنها فلاسفة ومفكرو اليونان الأقدمون، ومن أشهر ما كتبه علماء العرب فى عصرهم الذهبى هو ماذكره المفكر العربى الإسلامى الشهير عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه( العبر . . . . ) عن الاختلافات الجسدية بين البشر فى أقاليم المعمورة المختلفة فى ذلك الزمان، وهناك العديد مما كتب فى القصص والروايات وأدب الرحلات عن تنوع البشر فى مواصفاتهم البدنية. لكن إخضاع هذه الاختلافات للترتيب والتنظيم، وتصنيف النوع الإنسانى إلى عناصر وأعراق كما هو مسجل فى المراجع العلمية اليوم، جاء متأخراً منذ نهاية القرن السابع عشر على يد الأوروبيين فيما يسمى عندهم بعصر العقل والعلم.

وتمييز النوع من السمات الغريزية فى كثير من الأحياء، فالقطط والكلاب والخيول تستطيع تمييز نوعها عن غيره من الأنواع، لكن الإنسان استطاع أيضًا التمييز الفيزيقى بين الأعراق داخل النوع بناء على مواصفات مستفيضة ودقيقة.

ولما كانت الأنانية وحب الذات من الغرائز الأصيلة فى الكائن الحى لضرورتها فى أغلب الأحيان لبقائه وحماية وجوده، فإننا نجد الأطفال يسخرون من المنظر غير المألوف للوافد الغريب، ونقرأ أن الصينيين كانوا يصفون القوقازيين بالبرابرة ذوى الشعر الأحمر، أو البرابرة ذوى العيون الزرقاء، ومن المثير للدهشة أيضًا أن قبائل البوشمن سكان صحراء كلهارى فى جنوب غرب إفريقيا يعتبرون أنفسهم هم البشر الوحيدون وجميع الآخرين ـ مهما كانت ألوانهم ـ حيوانات وليسوا مثلهم من البشر. وعندما اكتشفوا أمريكا تساءل الأوروبيون عن السكان الأصليين من الهنود الحمر إن كانوا ينتمون للنوع الإنسانى أم أنهم مخلوقات بُدَائية وليسو بشراً، وغنى عن الذكر استعباد الأفارقة السود فى أماكن كثيرة وعلى مدى العصور وحتى وقت قريب.

وغالبًا ما دام الوافد الغريب ودوداً يحمى ولا يؤذى، يضيف ولا يأخذ فإنه يكون مقبولاً، أما إن كان سارقًا أو غازيًا فهو عدو وهمجى.

ومن الغريب أن السارق الغازى يعتبر صاحب الأرض المنهوبة والثروة المسروقة، إن دافع عن قُوته وأرضه، عدواً وهمجيًا أيضًا، وأصبحت كل مجموعة قلقة من الأخرى وتشعر بالتهدَيد كلما ظهر الوافد الغريب.

من هنا نشأ ما يسمى بالعنصرية أوالتمييز العرقى، وهو يختلف عن التصنيف العرقى. فالمشتغلون ببيولوچيا الإنسان يجدُّون فى البحث عن المواصفات الفيزيقية والاختلافات البدنية بين الأعراق المتنوعة لما لذلك من فوائد فى التشخيص الدقيق لبعض الأمراض والانحرافات التى تصيب الأفراد، أو المجموعات ولا تصيب أخرى، وكذلك تفيد هذه الدراسات فى استنباط العلاجات والأدوية المناسبة لسمات بيولوچية عرقية خاصة فتكون أكثر فاعلية وتأثيرًا. ومن الواضح أيضًا أن الأداء الوظيفى، وخاصة عند ممارسة بعض الرياضات البدنية، يكون أكفأ فى بعض الأعراق عن أخرى، لكل هذا فبيولوچيا الإنسان والتصنيف العرقى ضرورى ومفيد.

أما التمييز العرقى فهو شىء آخر، ويعنى أن القدرات الثقافية والشخصية والقيم الأخلاقية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمواصفات الفيزيقية لبدن الإنسان، والتى تنوعت بين الأعراق، وعلى ذلك تتكون وجهة نظر معينة لكل مجموعة عرقية تجاه الأخرى، ويؤدى ذلك إلى الكبرياء والاستعلاء لكل مجموعة عرقية عن الأخرى، لكن أحداث التاريخ تؤكد أن العرق الأبيض كان (ولا يزال) الأكثر استكبارًا و استعلاءً واستعبادًا للأعراق الأخرى، والعرق الأسود هو الأكثر عبودية وامتهانًا من الآخرين.

والمقدرات الثقافية ـ كما سبق ذكرها ـ هى نتاج عمل العقل، والعقل هو المخ العضوى فى حالة نشاط، وإنتاج ثقافة بشرط أن يكون هذا الإنتاج متصفًا بالوضوح والصدق من ناحية، وملتزمًا بالقيم الأخلاقية الرفيعة من جهة أخرى.

يعتقد كثير من علماء التاريخ الطبيعى للإنسان أن المخ البشرى لم يتغير فى تركيبه التشريحى خلال الخمسين ألف سنة الأخيرة من حياة الإنسان. هذا المخ يحتوى على عدة بلايين من الخلايا العصبية المترابطة مع بعضها البعض فى شبكة فائقة الاتصال وإن كانت منتظمة فى مجموعات متخصصة الوظائف. هذا ينطبق على أى إنسان فى أى مكان على هذا الكوكب ـ الأرض. ولكن إذا نظرنا إلى عمل المخ البشرى، ورغم قلة معارفنا الموضوعية عن كيفية أدائه لوظائفه حتى الآن، فإنه يمكننا عرض هذه الوظائف على النحو التالى:

أولاً: أنه ينظم وظائف البدن ويعمل على حفظ بقاء الكائن الحى من الناحية

البيولوچية مثله فى ذلك مثل باقى الكائنات الحية، وذلك عن طريق السعى والصراع فى سبيل الطعام والتكاثر والأمان.

ثانيًا: يتميز مخ الانسان بوظائف أعقد وأوسع وأعمق تمتد إلى التخيل والتصور والذاكرة، مما يساعد على استنباط الحقائق الخافية وابتكار الجديد. والإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى يتواصل بلغة لها قواعدها وينتج ثقافة بما تتضمنه من عناصر مختلفة سبق ذكرها.. وهنا يكون الإنسان عاقلاً

ومع أنه لاتوجد دلائل تجعلنا نعتقد أن المخ البشرى كعضو قد تغير تشريحيًا على مدى تلك الآلاف الأخيرة من السنين، فإننا نلاحظ التغير الواضح والبين فى نتائج نشاطه على مدى القرون، نجد الاختلافات فى نتائج ذلك النشاط من منطقة جغرافية إلى أخرى، وذلك يجعلنا نتوقع أن تلك النتائج مرتبطة إلى حد مؤثر بتنبيه الخصوصيات البيئية فى مفهومها الشامل لمجموعات الخلايا العصبية مع تراكم الخبرة والمقدرة على حفظها واستدعائها، فكلما كانت المنبهات متنوعة ومثيرة أدت إلى التنوع فى نشاط وأداء مجموعات الخلايا العصبية وازدياد تعقيداتها.

كل هذا يمكن أن يحدث إذا التزمنا بالبحث فى حدود الأساس البيولوچى المادى للنشاط العقلى فقط.

## • العلاقة بين العرق والثقافة

ولنا أن نتساءل: هل الفنلنديون، على سبيل المثال، يتكلمون اللغة الفنلندية؛ لأن جلودهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعورهم شقراء؟ وهل اليمنيون يتكلمون العربية؛ لأنهم قصار القامة نحيفو البدن جلدهم داكن وعيونهم سوداء...؟ إلخ... أم أنه بجانب الضغوط البيئية المحددة هناك أيضًا الروحانى المقدس الآتى من وراء الطبيعة؛ من الخالق الأعظم؟.

ولننظر إلى ملكات العقل الإنسانى المتفردة ومنها نظم الشعر أو استخدام اللغة فى التفكير والتعبير والتواصل بأسلوب يجمع بين نشوة الوجدان، ورقة الأحاسيس ولذة

المعرفة؛ تلك الملكة التى تجمع بين المقدرة الفائقة على التخيل وابتكار الأحلام. . . هل هذه الملكات مرتبطة بمواصفات فيزيقية للبدن ؟!

ثم لنأخذ ملكة الفضول المعرفى والبحث العلمى، تلك الملكات التى تجعل الإنسان يسعى للتعرف على الطبيعة من حوله فى أدق تفاصيلها، والتعبير عن ذلك فى أشمل القوانين. . . هل مورست تلك المقدرات العقلية فوراً وفى عرق ما بخلاف باقى العروق البشرية الأخرى ؟ أم أن العقل الإنسانى مر بمراحل متعددة ومتقدمة فى التركيب مع تراكم الخبرات؟ فمن «لا تفكير»، إلى«خرافة»، إلى «منطق»، إلى «ترميز» إلى «تجريب»والبقية تأتى، وقد ساهم كل البشر فى هذه المراحل فى أماكن كثيرة وفى فترات زمنية مختلفة وبآليات معرفية متنوعة.

إننا نلاحظ عقلاً يهتم بالتفاصيل الظاهرة مهما كانت دقيقة ويرتبها ويربطها مع بعضها البعض، وآخر يهتم بالاتجاه العام والصورة الكلية والتأثير النهائى بغض النظر عن التفاصيل، وهذا لايعنى أن أحدهما لا يستطيع عمل الآخر، بل إن كليهما يستطيعان عمل الاثنين معًا إذا توافرت الإرادة والوعى.

وكما أن الأفراد يتفردون بالأحاسيس والمشاعر الذاتية، والسلوك الخاص فى الموقف الواحد أو أمام الوقائع المادية المتماثلة، فكذلك لكل أمة، فى الأغلب، شخصيتها ولكل قوم خصوصيتهم ولكل لغة عبقريتها.

يتفق الكثير من المفكرين على أن النتاج الثقافى لكل أمة يعكس تجاربها مع بيئتها الخاصة، ونوع التنبيه ومدى تأثيره فى المجموعات العصبية فائقة العدد، وليست مرتبطة بالصفات الفيزيقية للبدن المميزة للأعراق.

إن النظر إلى سكان العالم اليوم يجدهم قسمين، إما مجتمعات غنية و قادرة على حماية نفسها متقدمة الثقافة، وخاصة عناصرها الفاعلة فى الحياة اليومية كالعلم والتكنولوچيا، وإمَّا مجتمعات أخرى فقيرة محدودة المقدرات الثقافية، وعلى ذلك فأمر المستقبل ـ فى حدود المنظور ـ بيد القوى، وأمامه اختيارات ثلاثة:

١ ـ إما الانعزال وترك الفقراء وشأنهم.

٢ ـ يأخذ بيد الفقراء ويساعدهم فى فتح طرق العمل و البناء واستغلال طاقاتهم دون أن يكونوا عبئًا ثقيلاً عليه .

٣ ـ استغلال مجموعة الفقراء الضعفاء واستخدامهم كقوة عاملة يحددون لها ما تعمل ، ويحددون العائد من هذا العمل ، ينهبون ثرواتهم ويقيدون حرياتهم بسطوة القوة المعرفية و العسكرية .

إنى أعتقد أن التكامل بين الثقافات فى الزمن الواحد هو المقدمة لما نتوقعه من نضوج مستقبل الإنسان الفكرى ، و هو الحقيقة الواحدة القابلة للتصديق .

لقد مضى وقت الانعزال وأصبحت الكرة الأرضية قرية كوكبية(كما يقولون) ، وسكانها ينتقلون بين أجزائها بسرعة طوت الزمن وسهولة اختزلت الجهد ، كما أننا فى نهاية عصر العبودية والاستغلال ؛ لأنه وإن كان الفارق فى القوة المادية واسعًا ومؤثرًا ورهيبًا ، فإن إرادة الحرية قويت ونمت وأصبحت أقوى من غريزة حب الحياة . لذلك فإن مفهوم التصادم و التصارع كما يمارسه الإنسان حتى اليوم ، ولأمد لا نعرف مداه ، هو نشاط يعكس الطبيعة البيولوچية للإنسان ، بل وسيطرتها أحيانًا على تفكيره وتوظيف هذا الفكر فى سبيل حفظ البقاء ولو على حساب الآخرين ، وهذا بدوره يعنى فقرًا فى الفكر وعودة بنا إلى البدائية .

* * *